كنز العلوم والدرّ المنظوم

في حقائق علم الشّريعة
ودقائق علم الطّبيعة

للإمام العلّامة

جمال الدّين محمّد بن تومرت الأندلسي

المتوفى سنة ٥٢٤ هـ

تقديم وتحقيق

أيمن عبد الجابر البحيري

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتى

المقدمة

الحمد لله الأول بلا بداية فى أزليته ، الآخر بلا[1] نهاية فى أبديته ، الظاهر فوق كل شىء ببديع صنعته ، الباطن فى كل شىء بعلمه وقدرته ، الذى نوّر قلوب العارفين بمصابيح معرفته ، واختصهم بقربه وأجلسهم فى حضرة جمال بهجته ، وألبسهم خِلَع رضاه وسقاهم كأس[2] محبته ، وأفاض عليهم أنوار علمه وحكمته .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منزّه لله عما سواه فى ذاته وصفاته وعظمته ، ومحقق لوحدانيته وربوبيته ، ومفتقر إلى نيل كرمه ورحمته.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله [أول نبى نبأه الله وآخر رسول أرسله برسالته][3] ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأهل ملته ما تحرك متحرك وما سكن ساكن بحول الله وقوته .

أما بعد : فإن لكل عالم منهاج ينهج فيه من العلوم إلى الأهم فالأهم ، ومعراج يعرج به فيها إلى سماء معالى الهمم ، وسراج وهَّاج ينوِّر به ما احلولك من دياجى الظلم ، فمن أسرج نبراس الحق ودقائق مسالك الهداية بالحجج القاطعات، والبراهين الساطعات ، فقد برح[4] من الضلالة [برعَاتِ الشياطين ؛ من البروق اللامعات][5] ، قال ﷺ : ((لولا العلماء من بعدى ،

---

(١) فى النسخة (أ) لا .

(٢) فى النسخة (أ ، ك) : بكأس .

(٣) ما بين المعكوفتين ، فى النسخة (ع) فقط .

(٤) فى النسخة (ك) : نزح .

(٥) فى النسخة (ك) : برعات شياطين بروق خلت مشكلاتها اللامعات . ورعَات الشياطين ، أى سكونها .

لرجع النـاس إلـى الجاهليـة الجهـلاء))[٦] . إذا كـانت المواهـب مـن اللـه اختصاصية والعطـايا منه ابتداعية ، وكان الله قائماً بـالأمر ؛ فغير بعيد أن يودع من المتأخرين رواة عـن أكثر المتقدمين ، كما أودع أسراره العظيمة الجسيمة ، فأظهرها فى آخر النبيين وآخـر المرسلين محمد صلـى اللـه عليـه وعلى آله وسلم ، وقد أغرب وأعرب من وفِّق بتوفيق التحقيق وَهُدِى فـاهتدى إلى سواء الطريـق ، فـأقول معلنـا بلسـان حـق : الحـق إن أفضـل العلـوم المعرفة بالله عز وجل ؛ هى مقصود كل علم وثمرته ولب لبابه .

وجميع العلوم النافعة مندرجة تحت علم الشريعة وعلم الطبيعة .

أما علم الشريعة[٧] : فهو علم الدين القيم الشافى من داء معصية الملك العلام، وهو مندوب إليه شرعا . قال تعالى ﴿**شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّين وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ [الشورى :١٣] .

---

(٦) لم نعثر عليه فيما بين أيدينا من مصادر مطبوعة . وجاء فى فضل العلم والعلماء آثار كثيرة وصحيحة ، ومنها ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عمـرو قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)) .البخارى : كتاب العلم ، باب كيف يقبض العلم (١٠٠) .

(٧) الشريعة فى اللغة : الطريق الظاهر الذى يوصل منه إلى الماء ، يقال : شرعت الإبل شرعاً وشروعاً : إذا وردت الماء . وقد تطلق الشريعة على الدين كما قال المصنف . فالشريعة ما جاءت به الرسل من عند اللـه تعـالى بقصد هداية البشر إلـى الحق فى الاعتقاد وإلى الخير فى السلوك ، والمعاملة ، وهى بهذا المعنى تشكل كلمة شريعة على الجانب الاعتقادى والجانب العملى ، وكلاهما يطابق المفهوم الكامل للدين . [روح المعانى للألوسى : فى تفسير قوله تعالى ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ [المائدة ٤٨] . فى التعريفات للجرجانى ص١٦٧ ، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية. د/ يوسف العالم ص٢٠] .

ومقصود الحكمة[٨] : حقائق علم الشريعة ، ودقائق علم الطبيعة .

وفائدة ذلك : تمييز الخالق من الخلائق ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عما سواه ؛ فذلك هو حقيقة العلم وقصد المراد منه ، والله أعلم .

وأما علم الطبيعة[٩] : فهو علم الحكمة التى كتبه الله بيد قدرته ، وأبدع فيه مخترعات صنعته ؛ ليدل بذلك على حقيقة معرفته ، ثم نبَّه عليه بقوله تعالى ﴿**يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

ومقصود الحكمة[١٠] : معرفة ما أودع الله فى علم الطبيعة من

---

(٨) الحكمة : وضع الشيء فى موضعه . ومقصدها علم يُبْحث فيه عن حقائق الأشياء على ماهى عليه فى الوجود بقدر الطاقة البشرية ومنها : الحكمة الإلهية ، والحكمة المسكوت عنها ، الحكمة المنطوق بها . [التعريفات للجرجانى ص١٢٣ ، حدود الألفاظ المتداولة لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى ص١٣] .

(٩) علم الطبيعة هو : قراءة الكون أو كتاب الله المنظور ، فهى قراءة كونية شاملة لآثار القدرة الإلهية ، وصفاتها وخلق الإنسان ، وسائر الظواهر الكونية ، وملاحظة ربوبية البارى جَلَّ شأنه وكرمه البالغ فى خلق الإنسان واستخلافه ، وائتمانه على الكون ، وندبه لإعماره وتسخيره .

(١٠) والحاصل من كلام المصنف رحمه الله فكرة الجمع بين القراءتين : قراءة الوحى ، وهو ما سماه: حقائق علم الشريعة ، وقراءة الكون ، وهو ما سماه : دقائق علم الطبيعة. يقول الدكتور طه جابر العلوانى : والإصطلاح على فكرة الجمع بين القراءتين ، وردت عند الحارث المحاسبى بشكل مجمل فى كتاب (العقل وفهم القرآن) حيث أشار رحمه الله تعالى إلى أنّ فهم القرآن يحتاج إلى فهم الكون كما أن الفخر الرازى قد بنى تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) انطلاقا من هذه الفكرة . ويقول الشيخ – أدام الله فى عمره ونفعنا بعلمه– إن الجمع بين القراءتين كان هو المنهجية البارزة للصدر الأول ، وكان مصدر قوتهم المتمثل فى الربط بين النص والواقع بطريقة جعلتهم يفهمون النص فهماً سليماً مكنهم من بناء تلك الحضارة الشامخة التى حققوا

المصنوعات الجاريات بالانفعالات الطبيعيات الروحانيات والجسمانيات العلويات والسفليات المقهورة بقدرة رب البريات ، المسخرات منه بحكم الإرادات والمسببات ، وما دبر فى ذلك من استخراج الأمور الغامضات الخفيات والجليات ، وسائر العلوم الحقيقيات ، وقدَّر فى ذلك من المنافع والمضَّرات والسعادات والشقاوات والحيات والممات والأسقام والصحَّات ومعالجة الأبدان المريضات بالمعالجات الطبيّات ، وقلب الجواهر الخسيسات إلى الجواهر النفيسات ، ولما جرت بذلك العادات وظهر منه عظيم البركات ، استخرت الله تعالى فى جميع ما استطعت من ذلك تأليفه فى هذا الكتاب المبارك ؛ فهذبت كليته وأبعاضه وبيَّنت ذاته وأعراضه بحسب ما ألهمنى الله من التحقيق وهدانى به إلى أوضح الطريق وجعلته مختصرا للأهم مما هو أهم من ذلك ، وصقلت مرآته بالإيجاز للمهتدين ؛ ليسهل درْسه على المنتهين وحفظه على المبتدين ، وسميته : **كتاب كنز العلوم والدر المنظوم فى حقائق علم الشريعة ودقائق علم الطبيعة** . وقصدت تبيينى فى ذلك وجه الله الكريم ونيل ثوابه العظيم ؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم :((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ....)) (١١) . راجيا بذلك أن ينيلنى الله تعالى وإخوانى عظيم فضله وعميم رحمته ، وأن ينفعنى وإياهم بما وضعت من دقائق علمه وحكمته ، وأن يحققنى وإياهم بحقائق معرفته ، إنه مجيب الدعاء فعال لما يشاء وهو على كل شىء قدير وبالإجابة جدير .

=بها شهودهم الحضارى فى العالم قبل أن تظهر تلك العلوم الوسيطة التى تحولت إلى حائل بين العقل المسلم والنص الموحى ، فكان الجمع بين القراءتين للسلف الصالح منهجيته ، التفاعل السليم بين العقل المهتدى والنص المعصوم والواقع المتغير تفاعلاً جعل من فقه التنزيل وفهمه وآليات ربطه بالواقع وترشيد سبل الحياة بقيمة الأساس السليم للحضارة . [الجمع بين القراءتين قراءة الوحى وقراءة الكون] .

(١١) هو جزء من حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى : كتاب بدء الوحى ، باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ (١) .

واختصرت الكتاب فى خمسة أبواب والله الموفق للصواب .

الباب الأول : فى علم الشريعة والحقيقة .

الباب الثانى : فى أصل علم الطبائع والمخلوقات من البداية إلى النهاية.

الباب الثالث : فى معرفة العقل والروح والنفس .

الباب الرابع : فى فضائل الآدمى ومعرفة الخالق والمخلوق من صورته .

الباب الخامس : فى استخراج العلوم الغامضة بسر الطبيعة .

obeikandl.com